

في الأدب الصوفي

قراءة تحليلية في السيرة الشخصية للحلاج

* رضوان السّح

- تحتل السيرة الشخصية للحلاج- وهي المعروفة بـ(قصة حسين الحلاج)(١)- موقعا خاصا في السير الشعبية المحلية كالزير سالم وعنترة وتغريبة بني هلال.. - وإن تكن أقل شهرة- وذلك لطبيعة البطل الصوفي، وما تجرّ من طبيعة خاصة للصراع وأطرافه، وللخير والشر، والقيم المطروحة عامة.

ولن نلج في تحليل هذه السيرة لرسم ملامح الوعي الصوفي الشعبي ولا يمكننا ذلك إلا بعد إطلالة سريعة على موجز لهذه السيرة.

- موجز السيرة:

كانت أم الحلاج حاملاً به، نذرت إن جاء مولودها ذكراً أن تهيه لخدمة رجال التصوف، **عندما** ولكنها عندما ولدته لم يهن عليها فراقه فأحبت أن تعلمه صنعة، ولكنه لم يفلح في تعلم صنعة، وفي يوم من الأيام ذكرها بنذرها، فحملته إلى الشيخ أبي القاسم الجنيد، فصار يخدم هناك، وبينما هو في أحد الأيام ينفض السجادة وإذ بورقة مطوية كان قد كتب عليها الجنيد (اسم الله الأعظم) ليشر به فأخذ الحلاج الورقة وبلعها ليتبرك بها، وهو لا يعلم ما فيها وحين دخل الجنيد وفتش عن الورقة لم يجدها فسأل عنها وهتد المريدين، وفي هذه الأثناء كان الحلاج واقفاً يبكي وقد التهب قلبه بنور الحق، وتغيرت أحواله، وصار يشطح بالكلام. فقال له الجنيد بضرورة كتمان السر، ولكن الحلاج ظل يتكلم كلاماً غريباً في السوق، حتى شكاه الناس إلى الخليفة بتهمة تكذيب المؤذن. فقال: أنا ما كذبت في المقال، فلو قال (الله أكبر) بصدق الإشارة لما حملته المنارة. وجمع الخليفة العلماء لمناظرته فطلب الحلاج أن يحفروا حفرة، ويوقدوا فيها النار، ويضعوا عليها هاونا من نحاس، وحين أصبح الهاون جمره حمراء قام الحلاج وجلس فيه، وقال: يا علماء بغداد من أراد أن يناظرني فليقع معي. فهربوا فقال: أتهربون من نار الدنيا ولا تهربون من نار الآخرة، وصاح: (الله أكبر). فتطايرت النار، وتفتت الهاون، وعندها قال للخليفة: يا خليفة الله في أرضه، لو قال المؤذن (الله أكبر) بصدق الإشارة، لما حملته المنارة، وكانت تفسخت من تحت أقدامه الحجارة.

وفي تلك الليلة، والحلاج عند شيخه أفتى علماء بغداد والشام ومصر بقتله، ونفذ الحكم فقطعت أوصاله وأحرق وذري رماده في النهر، وكان أوصى أخته أن تأخذ من رماده لتذره في النهر لأنه سيفيض ليغرق بغداد، وأن تقول له: عد إلى مجراك لأن أخي سامح قاتليه كرمى لشيخه الجنيد (٢). ويحدث ذلك وتراه في منامها بثياب خضر، وحدثها بأنه نال ما يريد حيث كشف عنه الحجاب ليرى جمال الحق في أي وقت شاء.

- الصراع.. ومفهوم الشر والبطولة:

- إن البناء الأساسي لأية حكاية إنما هو الصراع، وغالباً ما يتجلى عبر تناقض المصالح بين طرفين يمثلان الخير والشر. فإذا جربنا أن نفتش عن عناصر للصراع في قصة الحلاج هذه فماذا نجد؟

وجه الصراع الأول يتبدى في الحصول على السر الإلهي أو التميمة (اسم الله الأعظم) إلا أن هذا الصراع يبيننا على تعاطف مع طرفيه، لأحقية الشيخ من جهة، وللنية الطيبة للمريد من جهة أخرى.

بعد هذا ينتقل الصراع إلى مستوى آخر قطباه الحلاج والناس، وهنا يتعمق ويزداد حدة، ولكن دون ظهور قطب لتمثيل الشر، فعلى الرغم من تعاطفنا مع الحلاج يبقى الناس مدافعين عن شريعتهم وليسوا وجهاً عدائياً، بل يدافعون عن العقل والمنطق أيضاً في وجه كلام كله "لحن وتبديل". إلا أننا على هذا المستوى من الصراع نستطيع أن نكتشف أن المحور الحامل له ليس أخلاقياً بقدر ما هو معرفي فالناس تعادي لأنها تجهل، وهذه قيمة يريد النص ترسيخها، والوجه الأعم لها معاداة أي نظام معرفي للنظام المعرفي الآخر. ومن هنا نشرف على الصراع الأول فنراه بين شيخ عارف ومريد ساذج، أي أن الصراع ليس بين الخير والشر.

في سيرتنا لا يوجد قطب شرير، الحلاج يرهق الناس بكلمات غريبة تبدو مخالفة للشرعية، والعلماء يكفرونه، والخليفة يأمر بقتله بناء على حكم قضائي من الشرعية، والجنيد يكبله بالقيود والجلاد يقطع أطرافه ويصلبه ويقتله، ويحرق جثته، وقبل ذلك يجرمه الناس، ولكن ما من ثنائية للخير والشر، والسر في ذلك أن وحدة الوجود الصوفية لا ترى الشر في شيء، فلا وجود للشر، أو أن الشر في اللاشيء، ف"الوجود .. خير، والشر هو العدم" (٣).

إن البطولة في هذه السيرة إنما هي تحدي العدم المتمثل بالتافه والعادي، وصياغة اللوحات المذهلة عبر المواقف التراجمية العظيمة، ولا شيء وراء ذلك في وحدة الوجود التي لا ترى وجوداً للشر، إذ ما من ثنائية اسمها (الله- الشيطان) لأن الله هو خالق كل شيء، وهو خير مطلق لا يصدر عنه إلا الخير (٤).

— المعرفة والسلطة:

— كنت قد حددت في دراستي التي قدمت بها لكتاب (الطواسين وبستان المعرفة) للحلاج، مصطلحين اثنين متجادلين هما: (النقد) و(الفعل). حيث يشير الأول إلى تقصي الخلل المنطقي وبناء النتائج على مقدماتها بهندسية صارمة، ويشير الثاني إلى العمل بموجب المنفعة مع إغفال ما يتضمن ذلك من خلل منطقي (٥). وأعود الآن لاستخدام هذين المصطلحين لفهم العلاقة بين المعرفة والسلطة في هذا النص إن السلطة تقوم بتحويل التراث المعرفي إلى أيديولوجيا تسوّغ وجودها، وتستخدم في هذا التحويل الديماغوجية والقوة، وهما من سلالة (الفعل) مقابل (النقد)، وأمام هذه السلطة التي اتخذت من الدين الإسلامي أيديولوجيا تسوّغ لها نهب قوت الشعب عبر الضرائب وغيرها يمكن أن تقدم المعرفة غير المؤدجلة عقلانية الفلاسفة والمعتزلة أو اجتهد الفقهاء، ولكن الجمهور لا يخاطب بهندسية المنطق ودقة تشعبات العقل، إضافة إلى ما في ذلك من غرابة على التراث المنقول، وهذا ييسر للديماغوجية التلاعب اللفظي، كما أن اللغة الغربية على النقل تقدم بذاتها مسوغات نفسها بالقوة، أما الاجتهاد فقد توقف وساد تغليب النقل على العقل. والنقل حمّال أوجه، وأمام التأويل لا يبقى منه غير الوجه المناسب لمصالح ذوي السلطان.

ولا يمكن فهم الحركة الصوفية في فترات كثيرة من تاريخها إلا من خلال إحساس أصحابها بتناقضات هذا الواقع وخطورته. حين يدعى الحلاج لمناظرة العلماء أمام الخليفة— وقد دعي تاريخياً— فإن هذه الدعوة تبدو عادلة في مظهرها، أما في حقيقتها فهي أشبه بإلقاء مصارع مكبل أمام خصمه— أو خصومه— فالأرضية التي تقوم عليها المناظرة ليست في مصلحة الحلاج، كما أن أخلاق الأثنيين ومعتقداتهم لم تكن في مصلحة سقراط عند محاكمته، مع أن الأجواء كانت تبدو ديمقراطية، وقد جاء الحكم بتصويت الأكثرية، وذلك لأن الأيديولوجيا قد حددت الحقيقة بشكل مسبق. إنها المعرفة التي تجسدت فعلاً وقوة، أمام المعرفة التي ما تزال خطأ هندسية في الفراغ.

ويأتي امتياز الصوفية على العقلانيين بامتلاك (الفعل) — أو الحلم بامتلاكه— عبر الاتصال المباشر بالمطلق، وإنتاج النص الذي يكافئ النقل، ويظهر هذا الامتياز بالكرامة، وهي شقيقة المعجزة، فحين يدعو الحلاج مناظريه أمام الخليفة للجلوس معه في الهاون المحمر على الجمر فإنه يشهر سلاح القوة والفعل، لأن الدعوة للمناظرة في أساسها كانت صراع قوة وسلطان، وليست مناظرة معرفية، وبعبارة أخرى، إن القوة هنا هي الشكل المعتمد للبرهان.

إن اشتراك الولي والوالي في الجذر الاشتقاقي يحمل مشاركة في الدلالة كثيراً ما نلمسها في الكتابات الصوفية، وهي كون الولي سلطاناً في الخفاء، ونكتفي لتجنب الإطالة بمثالين على ذلك من المعجم الصوفي للدكتورة سعاد الحكيم: "إن الولاية دولة قائمة باطنة في مقابل دولة الظاهر.. وهذه الدولة يترأسها القطب أو الغوث" (٦).

"في بدء عهد الخلافة في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي كان الخليفة الظاهر أي أمير

المؤمنين هو نفسه الخليفة الباطن أي القطب. ولكن بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين ضعف الخليفة الباطن عن الظهور بصورة خلافته، فانقسمت الخلافة إلى باطنة وظاهرة، الباطنة: مرتبة ولاية. والظاهرة: مرتبة سياسية" (٧).

- رموز.. وتحليل:

- اختتمت سيرة الحلاج بالحلم كما بدأت بالحلم، اختتمت بالحلم الرويا حيث إطمأنت (المرأة- الأخت) إلى رؤية أخيها سعيداً في القرب.

وكانت البداية بالحلم- الرغبة، رغبة (المرأة- الأم) بأن ترزق طفلاً، وبين هذا الحلم وذاك حلم ينسجه الوعي الشعبي على شكل حكاية مليئة بالرموز يودعها عقائده وهواجسه وأمنيته. إن الماء رمز أنثوي غالباً، وهو الأم، ويمثل الخصب، والعودة إليه هي عودة إلى الرحم ونعيم ما قبل الولادة (٨).

وهكذا كانت حكاية الحلاج، من الماء إلى الماء، من مياه الأم، إلى مياه النهر، وهذه الحركة الدائرية للأشياء، الانتهاء في نقطة البداية، وهي تعبير عن أهم معتقد صوفي، وهو وحدة الوجود.

لقد بدأت الحكاية بامرأة حامل، والحمل إشارة ضمنية إلى وجود الأب، وعدم ذكر الأب صراحة ربما يعود إلى رغبة في محاكاة سيرة المسيح، هذه المحاكاة التي جاءت في عدد من الروايات التاريخية إلى درجة القول إن الحلاج لم يصلب وإنما شبيهه. إلا أن السيرة الشعبية لم تتوغل كثيراً في هذا للمنحى، وإن جاءت الإشارة في حلم الأخت إلى أنه لم يعان من تقطيع أوصاله لأن قلبه كان مشغولاً بالمحبة، وأنه عندما خنقوه نزلت ملائكة حسان الوجوه، ورفعته إلى ما تحت العرش.

إنني أرى عدم ذكر الأب يأتي لحاجة أخرى، وهي أن المرید ينبغي أن يكون بلا أب، والمعنى (سلوكياً) أنه ينبغي ألا يكون متعلقاً بأبيه الطيني إلا إذا كان أبوه وشيخه شخصاً واحداً (٩)، والحكاية تريد أن تجعل من الحلاج نموذجاً مثالياً في (السلوك).

والأب في البداية- طينياً أو إلهياً أو روحياً- تقابله النار في النهاية فهي رمز للأب والإله، والنار والماء من أعظم الرموز الكلية، ولهما قدرات إنتاج الحياة وتدميرها معاً (١٠). ففي الجانب التدميري نرى ثورة (النار = الأولياء) تنوي هدم بغداد، ونرى ثورة (الماء - الفرات أو دجلة) تفيض لإغراقها.

الجنيد الناري يمارس سلطته لتهدئة الأولياء، والأخت المائية تمارس سلطتها لإعادة المياه إلى مجرى النهر، وذلك كله بتسامح الابن التمزوي الذي يناصر ازدهار الحياة، ويقدم نفسه قرباناً (١١).

تأتي الأخت ثائرة سافرة عن وجهها إلى ساحة الإعدام، والسفور الذي يأخذ معنى الإغراء الجنسي وإنتاج الحياة، ينقلب في المعركة إلى معنى التحريض وإثارة النخوة في نفوس الرجال من أجل مزيد من الفتك والتدمير، والأخت في مشهد الإعدام تقوم بالدور الثاني، إنه سفور يتحدى الرجال

لتذكيرهم بأصلهم الذي يجري تزييفه بالقمع والتجهيل، وحين يطلب منها أخوها أن تستر وجهها أمام الرجال، تقول: "أين الرجال.. لو كانوا رجالاً ما أنكروا حال الرجال" (١٢).

وبهذه العبارة ندخل مستوى آخر للتحليل:

إن السيرة الشعبية هذه تكتب نسخها وتروى في أجواء الاستبداد العثماني، والسيرة الشعبية عموماً إنما تصور زمن كتابتها وروايتها، وإن كانت تستخدم أشخاصاً ووقائع من الماضي (١٣)، فماذا تود أن تقول هذه السيرة عن عصرها؟ أو ماذا يمكن أن نقرأ في هذا الذي سميناه حلاًماً أنتجه الوعي الشعبي (١٤).

إن السيرة بما تخلق من تعاطف مع شخصية الحلاج وتسويغ لكلامه وسلوكه الغريبين إنما تشكو واقعاً جامداً ومقولباً، وهي إن لم تكن نشداناً للمدنية والتطوير فإنها بكل تأكيد نزوع واضح للحرية والكرامة الإنسانية، إنها مطالبة صريحة بتقدير أحوال الرجال. والموقف الذي جئنا على ذكره في المناظرة أمام الخليفة هو تأكيد على مطلب الحرية عبر إظهار الفروق الفردية، وهو في الآن ذاته دعوة لتقدير أحوال الرجال.

والرموز التي تؤكد ما ذكرنا كثيرة وأهمها السجن، فالسجن تظهر دلالاته الرمزية عندما نقرأ "دخل السجن فوجد فيه خلقاً كثيراً" (١٥) والسجن قد يكون (الدنيا) (١٦) بمستوى رمزي أعمق تقتضيه سيرة صوفي، إلا أن هذا المستوى لا يلغي نزعة الحرية على مستوى أقل عمقاً، فماذا يعني قوله للسجناء- وهو واحد منهم-: "ما حبسكم هنا إلا ذنوبكم، وغفلة قلوبكم عن محبوبكم" (١٧) سوى التأكيد على رفضه شرعية هذا السجن، ثم يأتي خروجه مع المساجين بشكل غير شرعي تأكيداً على عدم شرعية الإدخال، وإذا كان الإدخال بشرعية الشريعة كما يريداه السلطان (١٨) فالخروج كان بشرعية الحقيقة أو الكرامة، وقد جاءت الكرامة تحمل رموز الحرية: المركب والبحر..

وحين ننظر في التهمة الكبرى الموجهة للحلاج وهي تكذيب المؤذن نلمس من السيرة تحرقاً إلى حرية القول، وإن كانت تحمل في الوقت ذاته تحرقاً لا يقل عنه في احتقار الكذب والتزييف وتفريغ الألفاظ من المعنى، وكلا الأمرين واحد فإنه يعمل على إنتاج قول مزيف فارغ المحتوى.

في موقف المناظرة تم عرض نموذج للكلمة الصادقة وأثرها وفي هذا إيقاظ للكرامة الإنسانية، وتنبية إلى خطر انحطاط الإنسان من برج اللغة والكلام إلى درك اللغو والتصويت.

وقد يكون من المفيد جداً النظر في دلالة (اسم الله الأعظم) الذي يشكل مركزاً تدور الأحداث في فلكه لنرى مدى التأكيد على أهمية الجوهر الإنساني، ومدى التأكيد على الصدق كطريق إلى هذا الجوهر.

جاء في فصوص الحكم لابن عربي: "الإنسان هو اسم الله الأعظم لأنه أعظم دليل على المسمى" (١٩) كما جاء فيه: "قيل لأبي يزيد: أرنا (اسم الله الأعظم) فقال: أسماء الله كلها عظيمة، فما هو إلا الصدق. أصدق، وخذ أي اسم شئت فإنك تفعل به ما شئت" (٢٠).

وأخيراً بقيت نقطة يثيرها تساؤلنا عن الأسلوب الذي تعتمد السيرة في مواجهة الظلام القائم، ولا أرى الإجابة تحتاج إلى كثير عناء، فالسيرة تجنح إلى التسامح والسلام، وقد جاء التسويغ الفني لهذا التسامح على شكل إكرام المريد لشيوخه "ولأجل عين تكرم ألف عين" ولا أرى تعليل هذا الجنوح السلمي مقتصرًا على أن الواقعة التاريخية تمت بدون أية مظاهر للعنف، فالتاريخ يروي حدوث بعض مظاهر العنف - وإن كانت بسيطة - كإحراق بعض الدكاكين (٢١).

ولكن من الأرجح أن الذي أسهم في تشكيل هذا الموقف المتسامح في السيرة هو كثرة القلاقل والفتن وما كانت تجرّ على البلاد من دمار وإفقار (٢٢)، ومن ناحية أخرى مفهوم البطولة الذي يجعل من القاتل موضوعاً للشفقة، بدل أن يكون موضوعاً للنار والانتقام.



□ هوامش ومراجع:

- ١- اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخ التالية من (قصة حسين الحلاج):
 - أ- قصة حسين الحلاج - دمشق - مطبعة الترقى ١٣٥٧هـ - ١٩٣٩م ونرمز لها (ت).
 - ب- قصة حسين الحلاج - مخطوطة محفوظة في مكتبة الأسد بدمشق برقم ١١٢٨٢/ منقولة من المكتبة الظاهرية، ونرمز لها (ظ).
 - ج- قصة حسين الحلاج - مخطوطة محفوظة في مكتبة الأسد بدمشق برقم ١٨٢٥١/ منقولة من المكتبة المولوية بحلب. ونرمز لها (م). وجميع النسخ مجبولة المؤلف.
- ٢- من المعروف أن الجنيد توفي قبل محنة الحلاج، والحلاج سلك الطريق وليس الخرقه على يدي عمرو بن عثمان المكي وليس على يدي الجنيد، ولكن السيرة كغيرها من السير الشعبية تجري الكثير من التحويلات في الزمان والمكان والأشخاص.. وهذا موضوع فصل في دراسة ستنتشر مع نص السيرة محققاً، ضمن كتاب بعنوان "السيرة الشعبية للحلاج".
- ٣- المعجم الصوفي - الدكتور سعاد الحكيم - دندرة - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨١ - ص ٢٠٨.
- ٤- انظر مقدمة (الطواسين وبستان المعرفة - رضوان السح - دار الينابيع - دمشق - ١٩٩٤) و(نقد الفكر الديني - د. صائق جلال العظم - دار الطليعة - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٨٢ - ص ٥٥ - ٨٧) و (منطق الطير - فريد الدين العطار - دراسة وترجمة د. بنيع محمد جمعة - دار الأندلس - الطبعة الثانية ١٩٧٩ - ص ٣٥٩ - ٣٦١).
- ٥- انظر مقدمة الطواسين وبستان المعرفة ص ١٢.
- ٦- المعجم الصوفي ص ١٢٩.
- ٦- المعجم الصوفي ص ١٢٩.
- ٧- المصدر نفسه ص ٤٢١.
- ٨- انظر تفسير الأحلام - بيردكو - ترجمة وجيه أسعد - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٥ - ص ٣٨٧ - ٣٨٩. والرموز في الفن والأديان والحياة - فيليب سيرنج - ص ٣٥٠ - ٣٦٠. والعنصر الأعظم في المعجم الصوفي

ص ٨٢٦ وما يليها.

٩- جاء في (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية- الشعراني - تحقيق طه بعد الباقي سرور والسيد محمد عيد الشافعي - مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٥): "من كان له أبوان لا يفلح في الطريق لأنه يصير مذبذباً بين ما يريد هذا، وما يريد هذا، ثم إن أبا التربية لا يدعو الولد دائماً إلا إلى الآخرة، وأبوه الطيني الغالب أنه لا يدعو ولده إلا إلى الأمور الدنيوية. وكان سيدي أبو السعود الجارحي يقول لمن يريد صحبته: هل لك أب؟ فيقول له: نعم. فيقول: أين هو؟ فيقول في البلاد مثلاً. فيقول: اذهب إليه، أنا لا أصحب من له أب غيري" ج ٢ ص ٦٠.

١٠- تفسير الأحلام لداكو ص ٣٩٥.

١١- انظر (مغامرة العقل الأولى - فراس السواح - دار الكلمة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨١) ص ٢٥٩ - ٢٦٥ و ص ٣٠٣.

١٢- نسخة (ظ) ورقة ٣٦.

١٣- فأبو زيد الهلالي هو الفدائي عند الراوي الفلسطيني، وذياب الهلالي هو عمر المختار عند الراوي الليبي. انظر (الأدب الشعبي والتحويلات التاريخية الاجتماعية. مثال سيرة بني هلال - مجلة عالم الفكر - عدد خاص عن الملاحم والسير الشعبية - الكويت - المجلد الثامن عشر - ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٦) ص ٣٧ و ص ٣٩.

١٤- انظر (اللغة المنسية - إريك فروم - ترجمة محمود منقذ الهاشمي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩١) ص ٢٣١ وما يليها.

١٥- النسخة (ت) ص ٨، وجاء في النسخة (ظ): "قلما دخل وجد في السجن خلقاً كثيراً" ورقة ٣٠.

١٦- جاء في الحديث: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" (طبقات الصوفية - السلمي - تحقيق نور الدين شريعة - مكتبة الخانجي الطبعة الثانية ١٩٦٩) ص ١٧.

١٧- النسخة (ت) ص ٨، وفي (ظ): "ما حبسكم إلا ذنوبكم، وغفلة قلوبكم عن محبوبكم" ورقة ٣٠. وعبارة (ظ) نفسها في (م) ورقة ١٥.

١٨- تبدو أنها رغبة الجمهور والفقهاء وهم في حال التعبير عن أيديولوجيا السلطة.

١٩- المعجم الصوفي ص ٦٠٩.

٢٠- المصدر نفسه ص ٦١١.

٢١- انظر (المنحى الشخصي لحياة الحلاج شينيد الصوفية في الإسلام - ماسينيون - منشور في كتاب شخصيات قلقة في الإسلام لعبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات - الكويت - الطبعة الثالثة ١٩٧٨) ص ٧٨.

٢٢- يقول ماسينيون معلقاً على رحيل الحلاج إلى مكة: "ويلوح أن هذا الرحيل كان في نفس الوقت الذي أختنت فيه فتنة الزنج، وقضي عليها فيه نهائياً، مما أكد عند الحلاج هذا اليقين، وهو أن وحدة الأمة الإسلامية لا يمكن أن تتم عن طريق الحرب الدنيوية، لكن عن طريق الصلوات والتضحيات في حياة الزهد والمجاهدة المنحى الشخصي ص ٦٥.